الشرق الاسلامي في البحث التاريخي *

هانس روبرت رويمر
ترجمة : د. عماد غانم

عن : مجلة سيكلوم . ١٩ (١٩٦٥)
ص ٥٧ ــ ٧٢ هامش روبرت رويمر

مقدمة المترجم :

إن المقال الذي أقدمه قد كتب أصلاً كمحاضرة ألقاها الأستاذ الدكتور هانس روبرت رومر في جامعة فريبورج بتاريخ ١٤ /١١/ ١٩٦٤ بعد أن تقدم ببحثه الذي يؤهله كي يصبح أستاذاً في الجامعة . وإن النقاط التي يثيرها هذا المقال حول الاستشراق بعامة والاستشراق الألماني بخاصة ــ عدا عن ملاحظاته حول طريقة كتابة التاريخ الإسلامي وبالأحرى مصادر التاريخ الإسلامي ــ جدّ هامة بالنسبة لنا وآمل أن يثير هذا المقال الذي أقدمه إلى جمهور « مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق » النقاش حول الموضوعات الكثيرة التي يتطرق إليها .

---

* العنوان الاصلي :

Hans Robert Rœmer, Der islamische Orient in der historisehen Forschung, in : Saeculum 19 (1965) p. 57 - 72.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منذ انتشار الإسلام ونشوء الحكم العربي في القرن السابع لم تنقطع العلاقات بين بلاد الغرب والشرق الإسلامي . وشملت هذه مظاهر الاحتكاكات الحربية والسلمية ونفذت بتأثيرها إلى جميع مجالات الحياة الثقافية والسياسية . ولا يدين الغرب للشرق الإسلامي بإيحاءات مهمة فحسب ، بل ثمة أجزاء كاملة من تاريخه الفكري والثقافي قائمة على مصادر شرقية أو كان الشرق واسطة لنقلها ، أو أثر في نشوئها . والشرق الاسلامي مدين كذلك بالفضل لأوربا . وكما أن تاريخ أوربا بشعوبها ودولها لا يمكن أن يفهم دون الشرق الإسلامي فإن تاريخ الشرق الأدنى لا يفهم دون أوربا . وهكذا لايمكن للأبحاث التاريخية (الأوربية) أن تهمل الشعوب الإسلامية وإنجازاتها الثقافية والسياسية ، إذا ما طمحت في الوصول إلى صورة للماضي قريبة من الواقع وإن كان موضوعها ينحصر في تاريخ الغرب ، فما بالك إن كانت تهدف أن يكون تاريخا عالميا .

يدرس تاريخ الشرق الاسلامي بالفعل منذ أجيال في أوربا ولم تبق جهود العلماء في هذا المجال دون نجاح . وليس هدفنا الآن إعطاء لمحة عن هذه الدراسات كما أننا لا نريد تقديم تقرير عن أبحاث الماضي القريب . وقد جرى بحث هذا أو ذاك من وجهات نظر عديدة(١) . وإن غرضنا

---

(١) راجع Bertold Spuler und Ludwig Forrer, Der Vordere Orient in islamischer Zeit, Bern 1954; Jean Sauvaget, Introduction à l'histoire de l'Orient musulman, Paris 1961; Denis Sinor, Introduction à l'étude de l'Eurasie Centrale, Wiesbaden 1963; F. M. Pareja, Islamologie, Beyrouth 1964.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استنتاج الأسس التي يجب أن نستند عليها أثناء القيام بمهمتنا العلمية في هذه الجامعة وإن مثل هذا التفكير ليس حراً إذا ما اقترن بمجال الاستشراق الواسع المدى .

على الرغم من الاهتمام الكبير الذي تمتع به تاريخ الشرق الإسلامي في الغرب إلا أنه لم يحظ بامتياز الحصول على كرسي أو معهد خاص (٢) في غالب الجامعات الألمانية كما هو الحال بالنسبة لمجالات التاريخ الاخرى ، مثل التاريخ القديم منذ نهاية القرن التاسع عشر أو تاريخ أوربا الشرقية منذ عهد قريب إذ خصصت معاهد دراسة لها . وغالباً ما يدرس تاريخ الشرق الاسلامي في معاهد الدراسات الشرقية التي تعرّف مجالات أبحاثها بأنها لغوية أدبية وليست تاريخية وكثيراً ما يطلق على التاريخ الإسلامي أسماء متعددة مثل :

معارف إسلامية Islamkunde ، علم الإسلام Islamwissenschaft

معارف شرقية Orientkunde ، دراسات سامية Semitistik

دراسات عربية Arabistik ، دراسات إيرانية Iranistik

ومن هذا الوجود في ظل فروع علمية أخرى يستطيع المرء أن يستنتج تقييم هذه المادة من قبل المستشرقين وإن حكماً دقيقاً قد يكون هنا بعيداً عن الدقة بسبب الميل الدائم الذي أظهره المستشرقون الألمان

---

(٢) باستثناء جامعتي هامبورغ حيث يوجد معهد دراسة تاريخ الشرق وحضارته « Seminar für Geschichte und Kultur des Orients » وميونيخ حيث معهد تاريخ الشرق الاوسط وحضارته والدراسات التركية : « Institut für Geschichte und Kultur des Nahen Orients sowie Turkologie ».

وفي باقي الجامعات يدرس التاريخ الإسلامي في معاهد الاستشراق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إزاء هذه المواضيع التاريخية(٣) . وبالشكل ذاته يجب أن يحكم المرء عندما لاتذكر كلمة تاريخ الشرق الإسلامي في مذكرة الاستشراق التي نشرت منذ زمن قريب والتي من واجبها أن تخدم أهداف العلم والدولة عن طريق تقديمها المعلومات والمقترحات ، وفي هذه الوثيقة التي أعدت إعداداً جيداً(٤) وقد يعود السبب في عدم ذكرها إلى الصدفة أو النسيان.

وإذا لم يلق التاريخ الإسلامي مكاناً في الاستشراق فيمكن معالجته في قسم التاريخ ضمن كل عصر من العصور ، الوسيط أو الحديث . ولما كان المؤرخ العادي لا يستطيع الوصول إلى المصادر الشرقية لعدم تمكنه من معرفة اللغات الضرورية ، فقد تحتّم على تاريخ الشرق الإسلامي على أي حال أن يظل ضمن نطاق الاستشراق ما دام لم يصبح علماً مستقلاً بذاته .

والآن يتخذ التاريخ الاسلامي طابعاً عالمياً واضحاً كالاستشراق عامة . ويوجد هذا الفرع خارج ألمانيا بصورة مستقلة . وغالباً ما يصادف المرء تقسيماً أدق للاستشراق مختلفاً عما هو الحال في ألمانيا . فانقسمت

---

(٣) وهذا ما يظهر في اجتماعات المستشرقين وكذلك في مقالات مجلة الجمعية الالمانية الشرقية :

« Zeitschrift der Deutschen morgenländischen Gesellschaft »

وفي كتاب :

Franz Taeschner: Islamistische Arbeitspläne.

Johann Fück : Die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts, Leipzig 1955.

(٤) لقد صدرت الوثيقة بهذا العنوان :

Denkschrift zur Lage der Orientalistik. Im Auftrage der Deutschen Forschungsgemeinschaft und in Zusammenarbeit mit Fachvertretern. Herausgegeben von Adam Falkenstein. Wiesbaden 1960.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدراسات الإسلامية في بعض جامعات أوربا وأميركا والاتحاد السوفييتي إلى دراسات عربية ، ودراسات إيرانية ، ودراسات تركية ، وقد انضم التاريخ إلى كل من هذه الأقسام(٥) . ولن نعالج هنا نتائج هذه الانقسامات .

ويكفينا هنا أن نثبت أن تاريخ الشرق الإسلامي لم يجد بعد مكاناً ثابتاً في بنيان الاستشراق الألماني . وإذا ما تقصى المرء الأسباب سيعثر ولا شك على بعض الحقائق الخاصة بالاستشراق فاستعمال مصادر التاريخ الاسلامي يفترض معرفة بلغاتها . ولا يتم تعلم هذه في المدارس الثانوية وإنما في الجامعة خلال دراسة طويلة ومجهدة لهذه اللغات التي تعتبر أساسية لطلاب الاستشراق بالضرورة . وفي الوقت ذاته ينفر الكثير منها لأنهم يرون فيها عقبة لا يمكن تجاوزها ، والنتيجة المنطقية لظروف هذه الدراسة هي التركيز الزائد على النواحي اللغوية وهذه اللغات المطلوبة عربي ، فارسي ، تركي (عثماني) على درجة من الصعوبة بحيث إن الطالب ينهي المرحلة الأساسية لتعلمها ولما يستطع بعد استخدام المصادر بالشكل الذي يقوم به الطالب الذي يدرس التاريخ القديم عند استخدام المصادر الإغريقية واللاتينية . فضرورة الفهم اللغوي للمصادر تفرض على المؤرخ المستشرق إذن ان يكون لغوياً بأكثر مما هو الحال عند مؤرخ العصور الأخرى . إلا أن الاتجاه اللغوي للاستشراق ــ كما نود أن نسميه هنا ــ له أسباب أخرى . فلا بد للمستشرق كأستاذ جامعة من أن يعلم تلاميذه بذاته اللغات الشرقية قبل أن يكون بوسعه تعليمهم استخدام

---

(٥) وان معالجة التاريخ ضمن الدراسات الإسلامية أو ضمن فروعها لها مزاياها ومساوئها . وان صورة واضحة عنها يقدمها تقرير عن المؤتمر العلمي بعنوان :
Historians of the Middle East, by Lewis 1960.
ومقال : Louis Bazin, La Turcologie, in : Diogène 24 (1958) pp. 98 - 130.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المصادر كما أنه من الواجب عليه أن يعطيهم لمحة عن آداب فرعه وأن يطلعهم على أهم مؤلفات تراثه . وهكذا فإن وضعه لا يتشابه مع المؤرخ الذي يهتم بتاريخ أوربا الشرقية حيث يأخذ عالم اللغات السلافية كثيراً من عبء تعليم اللغات .

وتؤثر التقاليد الناشئة عند مزاولة الاستشراق على وجود هذا الوضع أكثر من الأسباب العملية التي ذكرناها . ولا يفوتنا أن بداية الاستشراق خضعت لظروف القرون الوسطى وتأثرت كثيراً بالأهداف التبشيرية والدينية قبل أن يبدأ يوهان ياكوب رايسكي Reiske في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر بالدراسات العربية ذات الهدف العلمي . ومنذ ذلك الحين تطورت إلى علم لغة يهتم بالآثار الأدبية أكثر من اهتمامه بالمصادر التاريخية ، وهذه النظرة مستمرة الى الآن(٦) . وهكذا كان واضحاً ألاّ تحظى النصوص اللازمة للبحث التاريخي من العناية بمثل الحدّ الذي بلغته العناية بنصوص المواضيع الأدبية . وطبيعي أن نتعرض هنا إلى الظروف المهمة التي أدت إلى ازدهار الاستشراق في القرن التاسع عشر . فلقد وقفت في طريقه ـ عند البداية ـ صورة الشرق التي تكونت تحت روح مكافحة الإسلام خلال العهد الرومانتيكي والتي لم يتغلب عليها إلا بعد وقت طويل . ولم ينجح الاستشراق في هذا المجال إلا تحت تأثير الاتجاه التاريخي الذي بدأ بصورة خاصة بعد تطور الدراسات الاسلامية Islamkunde في القسم الأخير من القرن التاسع

---

(٦) لقد كانت مصادر التاريخ الإسلامي معروفة من قبل البحاثة الفرنسيين مثل : Bartholomé d'Herbelot توفي عام ١٦٩٥ و : Antoine Galland توفي عام ١٧١٥ . وهذان لم يستخدما المصادر هذه لأغراض تاريخية وانما لمعارف موسوعية . راجع : Fück, Arabische Studien in Europa, pp. 99, 101 :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عشر كنظـام علمي مستقل بذاته . ولم يحدث هذا الفرع الناشيء من العلوم الاجتماعية أسساً جديدة وعلمية لفهم الدين الاسلامي بل أغنى النظرة إلى حضارة الشرق الإسلامي بمضمون جديد ، وهكـذا نشأت أبحاث مرجعية حول تاريخ النصوص وتفسير القرآن . ولقد ازداد فهم الشعرالعربي ووجد الحديث في إغناتس جولد تسيهر Ignaz Goldziher ، أستاذ جامعة بودابست ، شارحاً حاذقاً . وقد بحث أيضاً نشوء الفقه الاسلامي وتطوره المبكر ، كمـا توصل الى معارف مهمة حـول موقف الإسلام من الوثنية العربية واليهودية والمسيحية . ولم تتوقف أبحاث الدراسات الإسلامية عند ما قدمه العرب للحضارة بل تعرضت أيضاً ـ ولو أن مجالها كان ضيقاً وغير متساوٍ ـ إلى بحث قسط الشعوب الإسلامية الحضارية الأخرى وبصورة خاصة الإيرانية والتركية . وساهم المستشرقون الألمان بالإنجازات التي حققتها هذه الأبحاث ، ولا نستطيع هنا أن نسمي سـوى أشهرهم مثل تيودور نولدكـه Theodor Nöldeke ويوليوس ڤلهـاوزن Julius Wellhausen وشـارك في هـذه الأبحاث علماء من غالب أنحاء القارة الأوربية .

وحددت الخطوات الناجحة التي حققتها الدراسات الإسلامية في نهاية القرن الماضي اتجاه عملها لوقت طويل . وكان التاريخ الحضـاري للشرق وقتئذ متأثراً بتاريخ الآداب والدين ، وبقي الأمر كذلك على نطاق واسع ، وهذا ما نلاحظه غالباً من ربط الدراسات الإسلامية مع الدراسات السامية وبهذا بقيت التقاليد اللغوية . ولم يسلم الاستشراق من آثار الحرب العالمية الأولى إلا أنه تمكن من التغلب على الشلل الناتج عنها . واستطاع أن يقوي مركزه بشكل لم يعهده من ذي قبل (٧) . وقد ميز

(٧) فقد تأسست في انكلترة عام ١٩١٧ مدرسة الدراسات الشرقية وأصدرت مجلة باسمها « Bulletin of the School of Oriental Studies » وفـي الاتحـاد =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوضع في ألمانيا حقيقة صدور مجلة قيمة بعنوان Islamica إلى جانب الدوريتين اللتين استطاعتا أن تستمرا على الرغم من الصعوبات وهما : الإسلام Der Islam وعالم الإسلام Die Welt des Islam .

وقد تميز اتجاه الدراسات الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى بمناقشة السؤال : أكانت حضارتا الغرب والإسلام اللتان تتضمنان عناصر متشابهة ، وبالاحرى أكانت تقاليد الشرق القديم والعهد القديم وحضارة العهد الكلاسيكي بطابعها الهليني وفصول من الإدارة الرومانية تشكل وحدة أم لا . وقد انطلق هذا النقاش بعد أن أثبت ارنست ترولتش Ernst Tröltsch أن الاسلام يمثل وحدة حضارية خاصة منفصلة عن الغرب. وقد رد عليه كارل هاينريش بيكر Carl Heinrich Becker (٨) ـ الذي لم تكن شهرته باحثاً في الإسلام أقل منها وزير ثقافة بروسيا ـ فقال : إن حضارتي الغرب والإسلام متقاربتان جداً بعضهما من بعض ولا بد من اعتبارهما كوحدة حضارية(٩) . ودعم هذا الرأي هانس

السوفييتي ازدهرت الدراسات الاسلامية راجع حولها :

I. J. Kratschkowski, Über arabische Handschriften gebeugt. Die russische Arabistik. المؤلف نفسه

واما في أميركا فقد تطورت الدراسات الإسلامية بشكل سريع وضخم بعيد الحرب العالمية الثانية .

(٨) راجع Hellmut Ritter, Carl Heinrich Becker als Orientalist (1876-1933), in : Der Islam 24 (1937) pp. 175 - 185.

وراجع أيضاً : H. Schaeder, C. H. Becker, Göttingen 1950.

(٩) هذا ما يظهر في مقالاته المجموعة في : C. H. Becker, vom Werden und Wesen des Islam. Vol. 1. 2. Leipzig 1924, 1934.

Der Islam im Rahmen der allgemeinen Kulturgeschichte, in : Zeitschrift der Deut. Morgenländischen Gesellschaft, 76 (1922) pp. 18 - 35. المؤلف نفسه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هاينريش شيـدر Hans Heinrich Schaeder بعدد من الأبحاث المليئة بالذكـاء والفكر حول التأثيرات الإغريقية في الإسلام (١٠) وعـاد هاينريش فريـك Heinrich Frick. عالم الدين في ماربورج الى تبني الرأي القائل باختلاف الحضارتين وأقام على هذا ادلة من التاريخ الديني وتبعه منذ وقت قريب ، المستشرق في جامعة ايرلانجن ، يورج كريمر Jörg Kraemer وأعاد مناقشة المشكلة من أساسها في بحث دقيق (١١) ، أورد فيه جميع الحجج وقيمها . كما جلب آراء كتّاب شرقيين معاصرين (١٢) لم تنتبـه إليها الأبحاث السابقة ، فتوصل بواسطتها الى النتيجة التالية : يمكـن قياس وحدة الحضارتين واختلافهما على ضـوء ردة فعلهما على ما أخذاه من التراث الاغريقي . وعلى الرغم من بعض الاتفـاق كانت ردة فعل الإسلام على التراث الاغريقي في النقاط الأساسية غيرهـا في الغرب ، وهكذا لا يمكن تبني رأي وحدة الحضارتين(١٣) .

وإنه لهم لفرضنا أن نثبت إلى أي حد يفي تاريخ الحضارة بحـق المتطلبات التي يجب أن يطرحها بحث الشرق الإسلامي تاريخياً . وننساق

---

(١٠) راجع :

H. Schaeder, Der Mensch in Orient und Okzisdent, München 1960.

(١١) راجع :

J. Kraemer, Das Problem der islamischen Kulturgeschichte, Tübingen 1959.

(١٢) وقد عالج في مقاله آراء الكتّاب التالين : مصطفى عبد الرازق ، عبد الرحمن بدوي ، عمر فروخ ، خالد محمد خالد ، طـه حسين ، محمد اقبال مجتبي ميثوي ، محمد المويلحي ، أبو الحسن علي الحسن الندوي .

(١٣) وتتخذ آنّه مـاري شيمل Annemarie Schimmel موقفـاً مماثلاً لكريمر ضد رأي شيدر وبيكر حول وحدة الحضارتين الاسلامية والمسيحية وهذا يظهر في مقالها :

Annemarie Schimmel, Die islamische Kultur, in : Albert Schaefer, Die Kulturen der asiatischen Grossreiche und Russlands, Stuttgart 1963. pp. 69 - 94.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مع هذا السؤال بصورة طبيعية إلى نطاق النزاع القديم حول مجال تاريخ الحضارة وحدوده ، وكذلك موقفه من التاريخ السياسي . إلا أنه ليس من واجبنا أن نتعمق فيه ، لأنه كاف لفرضنا أن نتوصل الى ما يفهم المرء في الدراسات الاسلامية تحت اسم تاريخ الحضارة . وهذا ما نستطيعه بفضل تعريف أعطاه واحد من زملائنا في الاختصاص منذ وقت قريب لمعنى الحضارة في مجال الدراسات الإسلامية . وهو يفهم تحت اسم حضارة(١٤) « نظرة فكريةونفسيةمعينة لتكوين العيش تحملهامجموعة من الناس وتعبر عنها بصيغة ملموسة محددة . ولا يقصد المرء بهذه الصيغ الوسائل التكنيكية المادية لرفع مستوى العيش أو أشكال تنظيم الحياة الاجتماعية وإنما الآثار (الأعمال) التي خدمت تحسين التقاليد والأخلاق بكل ما في الكلمة من معنى ، وهكذا فإن معنى الحضارة أخلاقي » سواء أخذنا بهذا التعريف أو لم نأخذ به ، فانه يمكن أن يكون صحيحاً لمعنى الحضارة في الدراسات الإسلامية ، وبالأحرى في تاريخ الحضارة الإسلامية كما سبق واستعمل في الدراسات المشهورة خلال عشرات السنوات السابقة . ولا نحتاج هنا أن نبرهن ان تحديد معنى تاريخ الحضارة لا يشمل سوى جزء من مجالات البحث التاريخي . وليس عجيباً عندما ينطلق المرء من الرأي السائد أن التاريخ الحضاري لا يتناقض مع التاريخ السياسي كما انه لا يهدف لأن يحل مكانه وانما غايته أن يغنيه عن طريق مناقشة بعض النواحي التاريخية . وهكذا فإن مجالاً واسعاً يبقى قائماً في بحثالشرق الإسلامي تاريخياً . ولا يدخل في مجاله التحديد الصحيح لتاريخ أهم الحوادث وتاريخ السلالات الحاكمة وتاريخ الحروب وعقد الصلح فحسب ، وانما يجب عليه أن يتوصل الى طريقة صحيحة

---

(١٤) راجع :

Helmut Gätje, Gedanken zur Problematik der islamischen Kulturgeschichte, in : Die welt als Geschichte 1960, pp. 157 - 167.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لدراسة بناء إدارة الدولة والولايات وتطور هذا البناء ، ودراسة مؤسسات الحياة الاجتماعية وأموال الدولة وإدارة الجيش ، وكذلك دراسة الظروف الاقتصادية ، وايجاد قائمة بالمشاكل التي أسند حلّها الى المدرسة التاريخية الوضعية في القرن التاسع عشر .

ولما كانت دراسة تاريخ الحضارة في هذا المجال ليست أقل أهمية من الاتجاه اللغوي للاستشراق الذي سبق ذكره والذي يرتبط بالتأكيد بتاريخ الحضارة(١٥) فإنه لا يمكننا أن نغض الطّرف عن كونهما أثّرا في البحث التاريخي على وجه معيّن ، وهذا ما أدى مثلاً الى انتخاب مواضيع وطرق معينة . وعلى وجه الإجمال نستطيع القول إن الطرق الخاصة بالتاريخ ومواضيع التاريخ السياسي ستبقى زمناً طويلاً متأخرة عن الأبحاث اللغوية ومواضيع التاريخ الحضاري وبوساطة التحقيق العلمي للنصوص الشرقية عمل علم اللغات كوسيلة للتاريخ ، فقد طبق يوهان ياكوب رايسكي Johann Jakob Reiske في الاستشراق طريقة نقد النصوص المستعملة في علم اللغات الكلاسيكية (الاغريقية واللاتينية) . وهكذا انتشرت هذه الطريقة في التحقيق التي تم بفضلها نشر طبعات جيدة

---

(١٥) ان ما كتبه فريتس تيجر Fritz Taeger عن وضع التاريخ القديم من حيث العلاقة بينه وبين الأبحاث اللغوية ينطبق أيضاً على التاريخ الإسلامي ولغات الشعوب الإسلامية راجع :

Fritz Taeger : Die Lage der alten. Geschichte, in : Historische Zeitschrift, 1953. pp. 455.

راجع ايضا :

Wilhelm Dilthey : Der Aufbu der geschichtlichen Welt in den Geisteswissenschaften, in : Gesammelte Schriften VII (1961) pp. 261.

فيقول : وهكذا فإن علم اللغات هو أساس علم التاريخ اذ ان فهم المصادر لا يتم بدون دراسة علمية للغاتها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لبعض المصادر ، ومنها ما هو تاريخي الموضوع . وإن نظرة على سلاسل النصوص المهمة (١٦) تكفي لإثبات ما يدين به المؤرخون لزملائهم علماء اللغات من فضل ، (١٧) وقد نشر المستشرقون ذوو الاهتمامات اللغوية برغبة خاصة مؤلفات المؤرخين العرب الكلاسيكيين ، سواء أكان اتجاهها خادما للغة أو للتاريخ الحضاري ، مما أدى الى تعميق الطريقة النقدية والذهن اللغوي الثاقب .

وعلى كل حال لا يمكننا التوصل منها إلى نتيجة كما لو كان العمل الأساسي قد تجلى في تحقيق النصوص التاريخية . والعكس هو الصحيح، ولقد وجد مؤرخ بريطاني مستشرق (١٨) المقارنة المصيبة عندما شبه هذا بجبل من الجليد يرى منه عشره ، بينما كتلته الأساسية باقية في المحيط بعيدة عن الأنظار . وبهذا المقدار هي نسبة عدد المصادر المنشورة إلى مجموعة الكتب المخطوطة التي تتعرض الى خطر الزوال . فقد

---

(١٦) ويكفي هنا أن نذكر منها السلسلة التي تنشر في لندن بعنوان : Gibb Memorial Series والسلسلة التي تصدرها الجمعية الشرقية الالمانية بعنوان : Bibliotheca Islamica

(١٧) ويشهد على هذا بشكل واضح استمرار اسس النشر هذه حتى في التحقيقات الحديثة . راجع حولها

R. Blachère et J. Sauvaget, Règles pour éditions et traductions de textes arabes, Paris 1945.

ويبدو اثر هذه الطريقة عند المحققين الشرقيين ، راجع حولها .

al - Munajjed, Règles pour l'édition des textes arabes, dans : Mélanges de de l'Institut Dominicain d'études Orientales du Caire 3 (1956) pp. 359 - 374.

(١٨) راجع :

B. Lewis in : D. Sinor, Orientalism and History. Cambridge 1954, p. 17.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أنتجت الشعوب الإسلامية كمية ضخمة من المصادر التاريخية وان ما ضاع منها واختصر ليس بقليل . وعلى الرغم من ذلك فإن ما تبقى في مكتبات جميع القارات ما زال كثيراً . وهي تشمل نصوص الحديث التي كانت قد نقلت شفاهاً ثم أثبتت بالكتابة الى جانب السير العديدة للنبي محمد (ص) ولأول الصحابة ، كما تشمل التواريخ العامة وتواريخ السلالات الحاكمة أو حكام مدن ومقاطعات وتواريخها وكذلك معاجم التراجم والموسوعات . وهذه الموضوعات ليست سوى الأهم من مجموع المواضيع التي تعالجها المخطوطات المتبقية . وقد كتبت جميعها خلال القرون الأربعة الأولى بعد الإسلام باللغة العربية فقط ، وفي القرن الحادي عشر بدأت كتابة التاريخ باللغة الفارسية الجديدة الى جانب العربية .

وقد ازدهرت المؤلفات بهذه اللغة وأضيف اليها في القرن الرابع عشر تاريخ العثمانيين باللغة التركية وبعدها كتب باللغات المختلفة للشعوب الإسلامية .

ولا يمكن القول : إنه لم تبذل جهود جدية لبحث هذه المصادر . ولئن كان وضع هذه الأبحاث غير كاف فإنما يعود الى ضخامة عدد المصادر المتبقية ، وإلى أسباب أخرى يجب أن تذكر على الأقل . لا شك أن مصادر عربية قد طبعت في أوربا منذ القرن السادس عشر (١٩) بينما لم تنشر الطباعة في الشرق إلا بعد زمن طويل (٢٠) وهكذا ظل الشرقيون

---

(١٩) راجع :

P. K. Hitti, The first Book Printed in Arabic, in : Princeton University Library Chronicle, 4 (1942) pp. 5-9.

(٢٠) راجع :

Joseph Nasrallah, L'imprimerie au Liban, Harissa 1949. A. Geiss, Histoire de l'imprimerie en Egypte, in : Bull. d'l'Inst. égyptien 5 ser. 1 (1907) pp. 133 - 157.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يستخدمون نسخ الكتب باليد بينما كان الأوربيون يطبعون الكتاب ، وأصبح الكتاب المطبوع عندهم أمراً معتاداً . وقد انتشرت طباعة الحجر التي قدمت للكتابة العربية إمكانية الخط الجميل ، ونالت الإعجاب إلى درجة أنها ما زالت موجودة إلى الآن . ومع زيادة طباعة الحروف في البلدان الشرقية خلال القرن التاسع عشر نشر الكثير من المصادر التاريخية . وهذه الطبعات وجدت طريقها إلى المكتبات الأوربية بصورة قليلة . وإن قيمتها في بعض الأحيان لا تختلف كثيراً عن قيمة بعض المخطوطات ، وذلك لندرتها . وفي بداية عصر الطباعة في الشرق الذي يرجع الى بداية هذا القرن لم تستعمل الطريقة العلمية في تحقيق المخطوطات . وقلما يعرف المرء أي المخطوطات استند عليها المحقق ، وهكذا فإن قيمة تلك الطبعات كانت طبق الشروط التي تستخدم فيها . ومن الممكن تقويمها عند تحضير طبعة علمية إذ إنه قد يكون المحقق اعتمد عند تهيئتها على مخطوطة لم يعثر عليها عند إعادة التحقيق(٢١) . ومن الواضح أن انتقاء المخطوطات للطبع لم يكن دائماً على أثر قيمتها كمصدر تاريخي ، وغالبا ما كان يتأثر بتفضيل مخطوطة أو كرهها محلياً أو تقليدياً ، هذا إذا ما أهملنا الناحية التجارية . وهكذا بقيت مصادر قيمة وقتاً طويلا دون عناية .

ويمكننا أن نعتبر علماء اللغات الغربيين بسبب جهودهم في مجال

R. Stübe, Die Einführung des Buchdrucks in der Türkei, in : Zeitschrift des deutschen Vereins für Buchwesen, 1 (1918) pp. 103 - 105.

F. Babinger, Die Einführung des Buchdruckes in Persien : 4 (1921) pp. 141 - 142.

في الدورية السابعة

(٢١) ونذكر كمثال على هذا الطبعة التي أعدّها يعقوب باشا أرتين للقسم الأول من تاريخ ابن اياس والذي طبع في بولاق في ثلاثة مجلدات ما بين سنة ١٨٩٣ و ١٨٩٧ . وحسب رأي محمد مصطفى ان هذه الطبعة تختلف كثيراً عن المخطوطات المعروفة لهذا المؤلف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نشر مؤلفات المؤرخين العرب القدماء « كأساطين علم التاريخ » (٢٢) إذا ما سمحنا لأنفسنا باستعمال مثل هذا التشبيه من القرن التاسع عشر . وللأسف لا يمكن أن يستمر هذا المديح بالنسبة للعناية بالمصادر العربية من القرون المتأخرة أو بالنسبة للمصادر الإيرانية والتركية . وإن اهتمام اللغويين الفربيين يقل مع نهاية العصر الكلاسيكي ، أي نهاية القرن العاشر الميلادي ، ويصل الى حدّ الانعدام بعد هجوم المغول على بغداد . ومن هذا الوقت تنتهي مساعدة اللغويين القيمة للمؤرخين .

وإن هذا التقييم السيء لمؤلفات اللغة العربيةبعد العصر الكلاسيكي(٢٣) مؤسف مهما يكن المبرّر ، وبصورة خاصة في مجال القرآن وأهم فروع الأدب الديني ، وكذلك في مجال الشعر العربي القديم الذي يتبع العصر الكلاسيكي . لأن إنتاج الفكر العربي المتأخر الذي نطلق عليه بسهولة اسم عصر الانحطاط والتفكك ، يستحق حسب حكم السير هاملتون جيب Sir Hamilton Gibb اسم «عرق النبلاء» وإن أسباباً معينة كالتي عددها إرنست روبرت كورتيوس Ernst Robert Curtius لدراسة لغة القرون الوسطى اللاتينية قد تكون صائبة بالنسبة لدراسة عربية ما بعد العصر الكلاسيكي(٢٤) فيكون الاهتمام بها خاصة عند دراسة

---

(٢٢) راجع :

Hermann Usener, Philologie und Geschichtswissenschaft, in : Vorträge und Aufsätze. Leipzig 1907.

(٢٣) وهنا لا بد من تقدير الجهود المشكورة التي بذلها كل من انو ليتمان Enno Littmann وهانس فير Hans Wehr لتحقيق المخطوطة الاستانبولية من أدب « عصر الانحطاط » والتي نشرت في سلسلة Bibliotheca Islamica 18 بعنوان كتاب العجائب والنوادر

Das Buch der wunderbaren Erzählungen und seltsamen Geschichten.

(٢٤) راجع :

La Littérature Arabe, dans : Encyclopédie de l'Islam 1 (1960) pp. 610-618.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تاريخ اللغة العربية وتطور قواعدها . ونرى أن اللغة العربية الكلاسيكية قد بحثت تقريباً بصورة تفصيلية وكذلك أيضاً اللغة الحديثة ولهجاتها . وتوجد سلسلة من التسجيلات والتعليقات عليها وأبحاث حولها ، بينما تنعدم دراسة القرون التي تفصل العصر الكلاسيكي عن العصر الحديث . ولما كانت هذه المرحلة من حياة اللغة العربية (أو لغة العصر الوسيط) (٢٥) تظهر بصورة خاصة في المصادر التاريخية فإن بحثها المفصل يفيد المؤرخ أيضاً ، ومن ناحية أخرى يستفيد منها علم اللغات إذا ما بحثت على ضوء المصادر التاريخية(٢٦) . ولم تصنف مصادر التاريخ الإسلامي باللغة العربية فقط ، وانما توجد مصادر تاريخية كثيرة بالتركية والفارسية منها ما هو من الدرجة الأولى في قيمته التاريخية (٢٧) . وإن دراسة هذه اللغات ذات جذور عميقة ولا شك ، إلا أنها لا يمكن أن تقاس مع دراسة العربية ، وذلك لأن شروط دراسة المؤرخين العثمانيين والإيرانيين وحتى القدماء منهم لم تكن يسيرة كما كان الأمر بالنسبة للغة العربية. وليس السبب انعدام وجود علماء لغة يتمكنون من دراسة هذه المصادر

---

(٢٥) راجع مقال Arabiyya في الموسوعة الإسلامية الذي كتبه م. خلف الله ويوهان فوك Johann Fück

(٢٦) ان معجم دوزي Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes 1881. يساعد في دراسة هذه المصادر

(٢٧) راجع عن المصادر التاريخية العربية

Wüstenfeld, Die Geschichtsschreiber der Araber und ihre Werke 1882.

Carl Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, Bd 1.2, Suppl. 1 - 3 Leiden 1937 - 1943.

راجع عن المصادر التاريخية الايرانية : C. Storey, Persian Literature, Vol. 1.2.

راجع عن المصادر التاريخية التركية :

F. Babinger, Die Geschichtsschreiber der Osmanen, 1927.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لغوياً . إذ إن المتخصصين بالدراسات الإيرانية والتركية الذين يمكنهم الاضطلاع بهذا الواجب والقيام به ـ كما فعل المستعربون (المختصون بالدراسات العربية) حيال المصادر العربية ـ موجودون في جميع البلاد الأوربية ومنذ وقت قريب في أميركا أيضاً ولو أن عددهم قليل (٢٨) . وان المشكلة تعود الى تأخر نشوء هذه المصادر على الرغم من أن اللغة الايرانية والتركية بصورة خاصة كانتا موجودتين قبل ظهور الإسلام كما تؤكد الوثائق الباقية.

وحيال ذلك من الطبيعي أن يقال إن مصادر المسلمين الإيرانية والتركية التاريخية غير مثمرة أو غير مهمة من وجهة النظر اللغوية(٢٩) ـ وقد ركز المختصون بالدراسات الايرانية والتركية جهودهم على دراسة الوثائق القديمة بصورة عامة ، وهذا يعني وثائق اللغتين من عهد ما قبل الإسلام . واذا توخوا دراسة العصر الإسلامي اختاروا دراسة المؤلفات الجذابة من الأدب ، وعلى الأخص باللغة الفارسية ـ أكثر من المصادر التاريخية ، وهكذا فإن العبء اللغوي الملقى على عاتق المؤرخين الذين كان عليهم تحقيق تواريخ تركية فارسية أثقل من عبء المختصين بالدراسات العربية . واذا كانت بداية أبحاث المستشرقين التاريخية ـ كما رأينا ـ تعتني بالتاريخ الحضاري إلى حد بعيد ، فانه يلاحظ على أبحاث هذا القرن الميل الى مواضيع التاريخ المعروفة وطرقه . وسنعالج هذا

---

(٢٨) راجع حول مشكلة المختصين بالدراسات التركية :

H. J. Kissling, Die türkischen Studien in der Orientalistik, in : Türkei - Nummer der Zeitschrift für Kulturaustausch, 1962, pp. 218 - 221.

(٢٩) يكتسب المرء لمحة كافية عن نتائج الابحاث اللغوية والتاريخية الحضارية عن طريق مؤلف:

G. Doenfer : Türkische und mongolische Elemente im Neupersischen, Wiesbaden 1963.

وعلى الرغم من أن واحداً فقط من المجلدات الأربعة التي يجب ان تظهر بهذا العنوان قد طبع الا أنه يبدو كجهد فريد النوع في الاستشراق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بشيء من التفصيل فيما بعد ، ويعني هذا في مجال فن التحقيق ـ الذي سيستوقفنا برهة من الزمن ـ على أن المختصين بالدراسات الإسلامية من المستشرقين ذوي الاتجاه التاريخي قد اعتنوا أكثر فأكثر بتأمين نصوص صحيحة، ولو أن شهرة النصوص كانت قليلة، مثل مصادرعثمانية وعربية متأخرة وتواريخ إيرانية كانت مهملة تماماً (٣٠) ويمكن التأكد من تقدم الطريقة بصدور الشروح التاريخية والفهارس والترجمات الى جانب نقد النصوص apparatus criticus (٣١) . وبسبب كمية المصادر التاريخية الضخمة كان يمكن أن يكون وضع نشرها سيئاً لولا أنها رفدت بمساعدة غير منتظرة ، على الرغم من التقدم الواضح الذي أحرزه ذلك النشر .

لقد تبنى أرنست ترولتش Ernst Tröltsch (٣٢) في سنة ١٩٢٠ رأياً

---

(٣٠) ونورد هنا الامثلة التالية : سلسلة

R. Kreutel, Osmanische Geschichtsschreiber, Histoire des conquêtes de Tamerlan, intitulée Zafarnama par Nizamaddin Sami. Edition critique par Felix Tauer, T. 1.2. Praha 1937, 1956.

Muhammad b. Sasra, A Chronicle of Damascus, trans. and annot. by Brinner. Vol. 1.2. 1963.

(٣١) ونكمل الامثلة السابقة بالعناوين المهمة التالية :

H. W. Duda : Die Seltschukengeschichte des Ibn Bibi 1959.

عطاء الملك الجويني ، تاريخ جهانكشا . تحقيق ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزويني مجلد ١ ـ ٣ لايدن ١٩١٢ ـ ١٩٣٧ . وان تحقيق تاريخ الطبري يعتبر من أنجح أعمال المستشرقين الاوربيين وطبع في لايدن في دار نشر بريل في ١٥ مجلداً ما بين ١٨٧٩ ـ ١٩٠١ .

(٣٢) راجع : Der Aufbau der europäischen Kulturgeschichte, in Schmollers Jahrbuch für Gesetzgebung und Volkswirtschaft im Deutschen Reiche 44 (1920) pp. 639.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مفاده أن القريحة الأوربية وحدها تمتلك الذهن التاريخي ، وهي وحدها شعرت بالحاجة الى معرفة الماضي بصورة نقدية، ولهذا فإن بحثنا هنا وبحث الناس هناك في الخارج Unsere Historie und die der Leute draussen لا يمكن وضعهما على مستوى واحد ، وبالتالي لا يمكن ضمّ بعضهما الى بعض . وإن حقيقة انعدام الوثائق والمصادر والأبحاث المهمة حسب طريقة الفكر التاريخي الأوربي بدت وكأنها تبرر زعم ترولتش . وفي ذلك الوقت كانت هناك محاولة ناشئة في منطقة الشرق الأدنى تشق طريقها ، واستطاعت بعد وقت أن تشكك بهذا الزعم لا بل تمكنت من دحضه . منذ منتصف القرن التاسع عشر والشرق يطمح الى اللحاق بنهضة العالم الغربي في مجال التكنيك والعلوم الطبيعية والمشاركة في التقدم المبني عليهما . وتحت تأثير التيارات القومية والخطوات السياسية الناجحة التي تحققت بعد الحرب العالمية الأولى ازداد هذا الطموح أكثر فأكثر في بعض بلدان الشرق الإسلامي الى درجة لم تعرف من ذي قبل . بينما كان طلاب هذه البلدان يرسلون الى أوربا لدراسة العلوم الطبيعية والتكنيكية والطبية ، ظهر الآن طلاب في الجامعات الأوربية والأميركية بهدف دراسة العلوم النظرية (٣٣) أوفد كثير منهم لكي يصبحوا بعد دراستهم أساتذة في الجامعات العديدة التي أنشئت في كل مراكز الشرق الأدنى تقريباً ، أو تطورت من معاهد علمية سابقة ، وكانت هذه الجامعات

---

(٣٣) يعالج طه حسين الأسس الفكرية لهذه الظاهرة في كتابه : مستقبل الثقافة في مصر ١٩٣٨ ترجمه الى الانكليزية S. Glazer بعنوان

The future of culture in Egypt, in : Am. Council. of Learned Societies. No. 9 (1954).

راجع ايضاً :

S. Bencheneb : Les humanités grecques et l'Orient arabe, in : Mélanges Massignon 1 (Damas 1956).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحتوي على كليات نظرية مصممة على النمط الغربي ، وهكذا تأسست كراسي لتدريس التاريخ وبصورة خاصة تاريخ الشرق الإسلامي . وغالبا ما أسند التدريس في هذه الأقسام الى مؤرخين وطنيين شباب تلقوا علومهم في الغرب .

ولا يمكننا هنا أن نحط من أهمية جامعات غربية ومعاهد دراسات نظرية زاولت نشاطها على أرض الشرق . ولنذكر هنا جامعتين فقط ، الجامعة الأميركية ، والجامعة اليسوعية في بيروت التي اتخذت طابع معهد عال للتبشير المسيحي عندما أسست قبل قرابة قرن وقد تجاوزت منذ وقت طويل هذا الطابع . وهاتان الجامعتان هما أشهر مؤسسات من هذا النوع ولكنهما ليستا الوحيدتين . ولقد ساهم نشاط مؤرخين أوربيين وأميركيين درسوا وقتاً طويلاً في الجامعات الشرقية في تثبيت الفكر التاريخي الناشيء .

ليس من الممكن كما أنه ليس ضرورياً أن نتعمق هنا في بحث نتاج علم التاريخ في الشرق الذي نشأ بهذا الشكل (٣٤)

---

(٣٤) يعطي تقرير لجنة المستعربين في الجامعة الأوربية لمحة عن جهود المؤرخين العرب ، ونشر في بيروت عام ١٩٥٩ بعنوان : ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الاخيرة في دراسة التاريخ العربي وغيره ويمكننا الاطلاع على جهود المؤرخين الايرانيين:

Afshar, Index Iranicus. Vol. I : 1910 - 1959, Tehran 1961.

وأما الكتب في هذا الصدد فنراها في :

Khân - Bâbâ Moshâr, A Bibliography of Books printed in persian. Vol. 1.2 Tehran 1958 - 1963.

وأما أبحاث الأتراك التاريخية فنراها في :

Enver Koray, Türkiye Tarih Yayinlari Bibliografyasi, 1729 - 50, Ankara 1952.

راجع ايضا :

Gabrieli, Studi di Storia Musulmana 1940 - 1950, in : Riv. Stor. It. 62 (1950), pp. 98 - 110

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلى كل حال فـان هذه الحقائق تكفي لتحطيم زعم ارنست ترولتش في وقتنـا .

إن التطور الموصوف أعلاه لم يشمل أهم أقطار الشرق الأدنى فقط مصر وتركيا مثلاً ، وإنما امتد إلى جميع دول المنطقة ، حتى الكويت هذا البلد الصغير لا يمكن استثناؤها ، وشاركت فيه كذلك دول شمالي إفريقيا الفتية . ولا يمكن أن ينكر المرء على عالم يجهد بهذا الشكل ليأخذ بالفكر التاريخي ، حاجته إلى معرفة نقدية للماضي مهما كانت الدوافع اليها . صحيح أن الوقت الذي تم فيه هذا التطور غير كاف للحكم عليه بصورة نهائية إذ لم يمض عليه أكثر من خمسين سنة بعد .

والآن يمكن القول بكل ثقة : إن التطور الحديث للبحث التاريخي قد رفد بخدمات جلّى عن طريق نشر عـدد من المصادر القيمة (٣٥) ولم تحقق هذه دائمـاً بطريقة علمية نقدية ، إلا أن مبدأ ضرورة الطريقة النقدية أصبح متبنّي في الشرق ويستعمل بتزايد، وإن الاتجاه لاعطـاء البحث نصوصاً محققة يسهل استخدامها ، يظهر في الشرق بوضوح الى درجة أن الكتب المحققة بطريقة مجهولة وغير نقدية أصبحت منذ وقت بعيـد نادرة . ويأخذ نشر المصادر التاريخية مكاناً مهماً في برامج دور النشر التابعة للحكومات أو الجامعات والمعاهد التي أنشئت في كثير من البلدان خلال عشرات السنين الأخيرة ، وإن حقيقة تأسيس معهد المخطوطات العربية منـذ عـام / ١٩٤٦ / من قبل الجامعـة العربية التي تعتبر مؤسسة سياسية يبين الأهمية التي أعيرت في الشرق للمسائل التاريخية. إن المهمة المكلف بها هذا المعهـد في القاهرة أن يقوم بوضع فهرس عام لجميع المخطوطات العربية الموزعة في جميع أنحـاء العالم .

(٣٥) نورد هنا تحقيق محمد مصطفى زيادة لكتاب السلوك والملوك للمقريزي ، القاهرة ١٩٥٨ ، كمثال نموذجي لجهود الباحثين العرب في مجال تحقيق التراث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما أنه مكلف بجمع ميكرو فيلم من أهمها ، وكذلك عليه أن يحقق ما هو قيم منها (٣٦) . وبين العلوم التي فهرست ، يحتل فهرس المخطوطات التاريخية أكبر قسم .

على الرغم من هذا التطور الباهر الذي لم يبلغ قمته بعد ، لن يكون بوسع المؤرخين الأوربيين المختصين بالشرق الإسلامي ترك مجال تحقيق المخطوطات للمختصين الشرقيين وحدهم (٣٧) . ولا يبرر هذا السبب التربوي وحده، إذ إنه لا يوجد تمرين أفضل للمؤرخ المبتدئ في معالجة المشاكل المعقدة التي تنشأ عند نقد النصوص والمصادر ، من أن يهيىء تحقيقاً نقدياً بذاته . وليست الحقيقة أن المؤرخين الشرقيين لا يتخذون موقفاً واحداً من عصور ماضيهم العديدة (٣٨) بأقل أهمية من هذا . وهنا يلعب دوراً كبيراً تفضيل العصر الكلاسيكي للغة العربية الذي لاحظناه عند المستشرقين منذ قليل . وان هذا الاختلاف عميق بحيث إن قصص ألف ليلة وليلة التي تمثل منذ وقت طويل الأدب العربي في الأدب العالمي ، لم تحصل على أي تقدير عند المثقفين العرب ، وانها حسب رأيهم تنتسب الى الأدب الشعبي والعصر المتأخر بلغتها . قد لا يتبنى جميع المؤرخين الشرقيين هذا الحكم المسبق إلا أن عدداً قليلاً قد تحرر منه ، وأسوا

---

(٣٦) راجع لطفي عبد البديع ، فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة . القاهرة ١٩٥٦ وما بعدها ٣ مجلدات للآن .

(٣٧) عند اعادة تشكيل جمعية المستشرقين الالمانية Deutsche Morgenländische Gesellschaft باجتماع ٤ /٦/ ١٩٤٨ في ماينز تبنى الكثير من المجتمعين الرأي القائل بترك أمور تحقيق المخطوطات الى الباحثين الشرقيين ، وقد دافع عن هذا الرأى بخاصة هانس هاينريش شيدر .

(٣٨) وفي هذا المجال ينطرح السؤال التالي الى أي مدى تعتبر الشعوب الاسلامية نفسها كوحدة ولو أن هذه في مجال الثقافة فقط ، وهنا تؤثر مواقف معقدة بشكل مصيري بحيث تجعل أي جواب ملزم غير ممكن ، وهذه المشكلة تستحق البحث بعناية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من هذا هو الموقف من بعض العصور التاريخية الإسلامية الذي يتأثر بالفكر القومي ، ويظهر هذا في مثال الحكم العثماني في مصر ١٥١٧–١٧٩٨ . هذه القرون الثلاثة التي كان يجب أن تعالج في نطاق التاريخ المصري أو التاريخ العثماني إلا أنها لم تلق عناية المؤرخين المصريين وبالأحرى العرب أو المؤرخين الأتراك المعاصرين ، ولو أنها لا تخص المراحل الجذابة من تاريخ وادي النيل إلا أنه لا يمكن تصور تاريخ مناسب لمصر الإسلامية عندما يتجاوز المرء هذه المرحلة بصمت ، وعندما تبرز مثل هذه التجاوزات من قبل المختصين الشرقيين ، فإنه لا يمكن التخلي عن أبحاث الأوربيين(٣٩) .

وإن المكانة التي أفسحناها في بحثنا للمصادر التاريخية الإسلامية لا تتناسب بدون شك والتقسيمات العادية لعلم التاريخ ، لكنها تراعي عادات غالب المستشرقين الذين اتجهوا سابقاً الى الأبحاث التاريخية . وحتى وقت قريب ، كانوا يأخذون مادتهم من المصادر السردية . إلا أن تحولاً قد أخذ يشق طريقه في النهاية (٤٠) عندما بدأ المؤرخون المختصون بالإسلام يطلعون على طرق الغرب في علم التاريخ ويستخدمونها في أبحاثهم . ويجب أن يؤكد بكل رخص أن سبب هذا العمل ذي الاتجاه

---

(٣٩) راجع :

S. J. Shaw, Cairo's Archives and the history of Ottoman Egypt, in : Report on Current Research, 1956.

المؤلف نفسه Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution Cambridge 1964.

المؤلف نفسه The Financial and Administrative Organisation and Development of Ottoman Egypt, Princeton 1962.

(٤٠) نود أن نذكر هنا أسماء Lewis و Cahen من المختصين بالتاريخ العربي و Petrushevskij, Spuler, Minorsky من المختصين بالتاريخ الإيراني . و Wittek, Babinger من المختصين بالتاريخ التركي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الواحد وهذا التعامل الطويل الأمد مع هـذا النوع من المصادر لا يعلل بالاتجاه اللغوي ضمن الاستشراق وحده . فان كل ما كان يحصل عليه المؤرخ الأوربي المختص بالإسلام من مواد تاريخية الى ما قبل عشرات السنين ، كان يقتصر تقريباً على عدد من التواريخ الشرقيـة ووثائق مشابهة متوفرة في مكتبات الغرب(٤١) . وأما المصادر الأخرى فكانت صعبة على مؤرخي الشرق من الأوربيين ، ولا شك أنها أصعب من عمل الباحث في تاريـخ أي عصر من التاريـخ الأوربي . وقد وجدت النقود الإسلامية في وقت مبكر ضمن مجموعات النقود الأوربية . ولقـد نشرت أيضاً بعد حين ولكن لم يوضع للآن أي مرجع علمي للنقد الإسلامي (٤٢) ولم تجمع الكتابات الأثرية دون رحلات واسعة وشاقة ، وهذا يبرر أنها لم تنشأ قبل نهاية القرن الماضي ، والمستعرب السويسري ماكس ڤان برشم Max van Berchem (توفي١٩٢١) أعظم مؤسسيها ، وقد بدأ بنشر مجموعة الكتابات الأثرية العربية Corpus Inscriptionum Arabicarum (٤٣)

---

(٤١) ان مقال Hammer - Purgstall سنة ١٨٣٣ حول الوثائق العثمانية كـان يعتبر فريداً من نوعـه .

(٤٢) ان كتاب O. Codrington, A Manual of Musalman Numismatics. 1904 اصبـح قديماً وغير كامل لا بل قليل المضمون ، وانه من الممكن استخدام المؤلف التالي بالاضـافة اليه :

L. A. Mayer, Bibliography of Moslem Numismatics, London 1939.

(٤٣) Max van Berchem, Gaston Wiet und Ernst Herzfeld, Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. dans : Mém. de l'Inst. Franç. Ar. Orient. du Caire XIX, LII, LXXV, LXXVI, LXXVII, LXXVIII, XLIII, XLIV, XXIX. Le Caire 1894 - 1956.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد تلاه ملحق الكتابات الأثرية العربية (٤٤) وإن هذين المؤلفين لم ينتهيا بعد والتطلعات الى متابعتهما لا تحمل بارقة امل . وعلى الرغم من أن معظم الكتابات الأثرية الإسلامية مكتوبة باللغة العربية إلاّ أن هناك تركية وإيرانية . وقد نشر قسم منها ولم يجهد في جمعها . وعن مدخل الى الكتابات الأثرية الإسلاميةيبحث المرء دون جدوى ، إذ إنه ليس هناك أي كتاب في هذا الموضوع .

وأما الوثائق التاريخية الإسلامية فتشكل موضوعاً لم يعالج بعد بشكل كاف ، وإن قيمتها العلمية في كتابة التاريخ لم تكن معروفة من جميع باحثي تاريخ الإسلام ، ومن أدرك قيمتها لم يكن بوسعه الحصول عليها . وإن كتاب جان مابيّون Jean Mabillon بعنوان « الوثائق » De re diplomatica لم يكن معروفاً في الشرق حتى وقت قريب. وبغض النظر عن بعض الحالات القليلة لا نجد في بلدان الشرق دور أرشيف قائمة على أسس علمية في تصنيفها وإدارتها وهذا لا يعني أن الوثائق كشيء رسمي غير معروفة في العالم الإسلامي ، أو أنها كانت في بعض الأوقات قليلة الانتشار .

ومن الثابت أن الوثائق كانت تستخدم في زمن النبي (ص) (٤٥) إلا أن ظروف الحفاظ عليها ووضعها تحت تصرف الباحثين غير متوفرة .

---

(٤٤) Etienne Combe, Jean Sauvaget, Gaston Wiet, Repertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire 1931 - 56.

وصدر منه حتى الآن ١٥ مجلداً .

(٤٥) عند عقد صلح الحديبية في سنة ٦٢٨ طلب المسلمون أن يبدأ نصّ العقد باسم الله الرحمن الرحيم بينما أصر المكيون على استعمال العبارة السائدة حتى ذلك الوقت : « باسمك اللهم » .

راجع حولها : J. Jomier, Le nom divin « al-Rahman » dans le Coran, dans : Mélanges Massignon 2, p. 367.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونود أن نعيد الى الأذهان التغيرات الكثيرة ونقل العاصمة من مدينة الى أخرى ، والتخريب النادر المثيل الذي كانت تخلفه الغزوات المتكررة والحروب ، كما أن فقدان مؤسسة شبيهة بأديرة(٤٦) أوربا لعب دوره في هذا المجال ، وأن ما تبقى على الرغم من هذه الحوادث يمكن أن يحظى باهتمام المؤرخين . وإذا كانت المقاييس التي تطبق على التاريخ الإسلامي لا يمكن أن تقوّم على أساس أوربي ، إلا أننا نستطيع أن نتعرف على تنظيم ديوان الحكومة وعمله وتطوره وتغيره من سلالة الى أخرى ، وهكذا نتمكن من الاطلاع على المؤسسات والوظائف في معظم الدوائر الحكومية كما نطلع على النظم المالية والضرائب وتنظيم الجيش ، كما تستطيع الأبحاث التاريخية أن تؤمن لنا تصورات واسعة عن الحياة اليومية وأوضاع الشعوب الإسلامية الاجتماعية والاقتصادية ، وكذلك عن الحوادث المهمة . وعلى الرغم من الوضع السيء الذي يعانيه حفظ الوثائق الإسلامية وجمعها إلا أن الخطوات التي أحرزت في عشرات السنين الأخيرة في مجال العثور على الوثائق وتحقيقها ونشرها قضت على الآراء التي كانت تقول : إن هذه الوثائق كانت معدومة في بعض العصور وخلال حكم بعض السلالات ، وهكذا فان الانشغال بها غير مجد بسبب قلة عددها (٤٧) ، وقد أخرجت من أرض مصر وحدها / ٥٠٠٠٠ / قطعة

(٤٦) حيث تقوم أديرة في العالم الإسلامي ، توجد أوامر الحكم ووثائق أخرى قد حفظت فيها ، وهذا ما نلاحظه في دير آثوس في كريت حيث وجدت فرمانات تركية وفي الدير الارمني باتشميا دزين حيث الوثائق الفارسية ، وفي دير كاترينا في سيناء ودير الفرنسيسكان في القدس حيث الوثائق العربية .

(٤٧) ويستطيع المرء أن يكتسب لمحة عن مستوى البحث في مجال الوثائق عن طريق مقال :

Encyclopédie de l'Islam, Diplomatique, II, 309 - 25, Diwan, II, 332 - 46.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قرطاس عربية يتراوح قدمها بين سنة ٦٣٢ ـ ١٣٧٨ ميلادية (٤٨) .

لا شك أن معظمها وثائق خاصة ، والقليل منها ذو موضوع عام . ويبدو أن الوثائق التي تتعلق بالحكم حتى ما قبل /١٠٠٠/ ميلادية منعدمة الوجود بشكلها الأصلي ، وهي كذلك قليلة الوجود في القرنين التاليين (٤٩) وتوجد بعدد اكبر بداية من العهد المملوكي ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ وعلى الرغم من التقدم في بحثها والكشف عنها (٥٠) إلا أن معظمها ما زال من غير نشر . وتوجد في استانبول مجموعات من المحفوظات (أرشيف) ضخمة من سنة ١٤٥٣ وتكملها مجموعات المحفوظات (الأرشيف) الموجودة في مناطق مختلفة كانت تخضع للعثمانيين (٥١) وقد نشر عدد كبير من الوثائق التركية إلا انها كما هو الحال في بلاد الشرق موزعة في

---

(٤٨) راجع :

A. Grohmann, Einführung und Chrestomathie zur arabischen Papyruskunde 1, Praha 1954.

(٤٩) أقدم وثيقة معروفة منها نشرها أدولف جروهمان Adolf Grohmann وهي عبارة عن قانون فاطمي من سنة ١٠٢٤ وهو موجود في المتحف القبطي بالقاهرة القديمة . وقد صدر كتاب : S. M. Stern, Fatimid decrees. London. 1964

ويورد المؤلف فيه جميع الوثائق الصادرة عن الحكام الفاطميين وهي عبارة عن عشر .

(٥٠) يجب أن لا يبالغ في التصورات حول عدد هذه الوثائق اذ انها لا تزيد كثيراً عن المائة . راجع حولها :

Norberto Risciani, Documenti e Firmani, Jerusalem 1931.

ويحتوي هذا الكتاب على ٢٦٥ وثيقة بحجم كبير منقولة بالأحرف اللاتينية ومترجمة ، واخذت من دير القرنسيسكان في القدس . ويورد الكتاب التالي وثائق مملوكية اخذت من دير سيناء

Hans Ernst, Die mamlukischen Sultansurkunden des Sinaiklosters, 1960.

(٥١) راجع :

Mihail Guboglu, Paleografia si Diplomatica turco - osmana, Bukarest 1958.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مطبوعات مختلفة وهي بحاجة إلى التجميع ، والمحقق من هذه الوثائق ما هو إلا جزء بسيط مما لم ينشر بعد . وحتى وثائق السلالات الإيرانية خلال القرن الخامس عشر ـ التي كان يعتقد أنها لم تترك وثائق ـ فقد وجدت وحققت (٥٢) . ان مثل هذه الامكانيات قائمة بالتأكيد بالنسبة لمجالات التاريخ الإسلامي الأخرى . وإن البحث في دور المحفوظات (الأرشيف) الأوربية عن الوثائق العربية لم ينته بعد وإن التفتيش عن رسائل مخطوطة وقوائم الدواوين ومستنداتها ونسخ الوثائق ما زال في البداية (٥٣) .

إن كتابة التاريخ الإسلامي الذي تهدف إليه جهود المختصين بطريقة حديثة سيتوصل إليه عندما تحل المشاكل التي أوردناها . وتحقق بعض منها في عشرات السنين الأخيرة ، ولقد ذكرنا بعضها واهملنا بعضها الآخر لقلة أهميته . وإن العمل الذي يجب أن يتم في هذا المجال ضخم جداً ، ويحتاج بسبب طابعه الخاص إلى جهود مشتركة من مؤرخي أوربا والشرق . ومنذ مدة قصيرة اقترح ألفريد هويس Alfred Heuss إعادة النظر في مستوى معرفتنا التاريخية (٥٤) لأنه ينتظر منها اكتشاف فجوات جوهرية في معارفنا ووضع أسس جديدة للبحث . وان صورة

---

(٥٢) لقد اكتشفت منذ وقت قريب وثائق تعود الى القرن الرابع عشر . راجع حولها :

M. H. M. Nakhdjavani, Un édit royal, dans : Revue de la Faculté des lettres de Tabriz. 5, 1 (1953) pp. 40 - 47

(٥٣) يعتبر الكتاب التالي :

Heribert Horst, Die Staatsverwaltung der Grosselguqen und Horazmsahs (1038 - 1231) Wiesbaden 1964.

نموذجا لتقويم مثل هذه الوثائق .

(٥٤) راجع :

Alfred Heuss, Verlust der Geschichte, Göttingen 1937, p. 87.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التاريخ الإسلامي لدينا تبرز من غير سؤال فجوات حساسة . وقد تؤدي تأملاتنا هذه للدلالة على طرق سدّ هذه الفجوات .

ومن يتجاوز هذه المرحلة يحتاج إلى جهود مثمرة ويجب عليه الا يخشى أن يبتلعه الماضي الذي تحول الى مولوخ Moloch (٥٥) أو يصيبه على الأقل ما يطلق عليه «القرف من التاريخ» taedium historiae (٥٦)

هانس روبرت رويمر

* * *

(٥٥) اله كانت تقدم له ضحايا بشرية .

(٥٦) راجع :

Karl Heussi, Die Krisis des Historismus, Göttingen 1932.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net